الفصل الثاني عشر

روح بوتين

بعد ظهر يوم 11 سبتمبر/أيلول 2001م، اجتمع بوتين وثمانية وأربعين صحفيًّا في الكرملين ليمنحهم مرتبة الشرف، وهو تقليد من العصر السوفييتي. وفي تصريحاته المقتضبة أمام كاميرات التلفاز، خصَّ المراسلين الحربيين الذين أرسلوا بتقاريرهم من الشيشان، والذين واجهوا بذلك «حربًا دعائية ومنظمة ويدفع لها بسخاء» من قبل المتمردين، وأضاف أن «عملية السلام تكتسب زخمًا هناك إلى حد كبير من خلال إنجازاتكم». الرجل الذي ألغى شبكة التلفاز الخاصة الوحيدة، وشبكة الدولة الوحيدة التي تمتعت باستقلالية، يصرح وقتها أن وسائل الإعلام ركن هام من روسيا الجديدة، وأضاف أن «التغيرات السياسية والاقتصادية الضخمة ستكون مستحيلة في روسيا دون وسائل الإعلام الحرة».

كان الحفل قد انتهى من فوره عندما استدعاه مساعدوه الأمنيون إلى قاعة المؤتمرات حيث شاهدوا هناك تقارير تلفازية عن الطائرات التجارية التي تحطمت في مركز التجارة العالمي والبنتاغون، هجوم نفذه تنظيم القاعدة، المنظمة التي جادل الروس مدة طويلة بأنها تقدم المساعدة للمتمردين الشيشان، والتفت بوتين إلى سيرجي إيفانوف، زميله في الـ(كي جي بي) وصديقه، وسأله: «ما الذي يمكننا فعله لمساعدتهم؟»[1].

وصف كثيرون، في وقت لاحق، رد فعل بوتين بأنه كان ساخرًا، ولكن في الساعات التي تلت الهجمات تصرف بحكمة وتوجه إلى مساعدة بلد كان ينظر إليه بشكوك دائمة، فحاول

الاتصال هاتفيًّا بالرئيس جورج دبليو بوش، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه؛ ربما بسبب حالة القوات الجوية في الولايات المتحدة، وعندما حاولت مستشارة بوش للأمن القومي، كوندوليزا رايس، الاتصال بإيفانوف، تولى بوتين على الفور الرد عليها، وأكد لها أنه لن يرفع حالة التأهب العسكري الروسي ردًّا على التحرك الأمريكي نحو الحرب. في الواقع خفض من حالة التأهب، وألغى المناورات العسكرية في المحيط الهادئ التي بدأت في اليوم السابق وتحاكي الصراع النووي مع الولايات المتحدة، وسأل رايس: «هل من شيء آخر يمكننا فعله؟».

لمعت في ذهنها فكرة: لقد انتهت الحرب الباردة حقًّا[2].

كان بوتين أول زعيم في العالم يتصل بالبيت الأبيض، حتى قبل أن يتضح مدى الهجوم، وقد اتصل هاتفيًّا في وقت لاحق برئيس الوزراء البريطاني توني بلير في بريطانيا، والمستشار الألماني جيرهارد شرودر في ألمانيا، مكررًا أن العالم يجب أن يتحد ضد آفة الإرهاب. وعلى النقيض من صمته الحذر بعد كارثة كورسك وغيرها من المناسبات الكبرى، ظهر بوتين على شاشات التلفاز، وأعرب عن تعازيه لضحايا ما أسماه «عملًا غير مسبوق من العدوان»، و«أن الأحداث التي وقعت في الولايات المتحدة اليوم تتجاوز الحدود الوطنية»، وأضاف: «إنه ليس تحديًا سافرًا للبشرية جمعاء، بل للإنسانية المتحضرة على الأقل»، وأوضح أن المأساة فرصة لإعادة صياغة العلاقات الدولية لقتال «طاعون القرن الحادي والعشرين»، وأن «روسيا تعرف قبل كل شيء ما يعنيه الإرهاب»، وأضاف: «لذلك نحن نتفهم- كما الآخرين- مشاعر الشعب الأمريكي»، ومخاطبًا شعب الولايات المتحدة نيابة عن روسيا قال: «أود أن أقول إننا معكم، نقاسمكم ونشاطركم تجربتكم الأليمة»[3].

وفي ظهر يوم 12 سبتمبر/أيلول اتصل بوش به ردًّا على اتصاله، وكان بوتين أصدر مرسومًا يدعو لدقيقة صمت تضامنًا مع الضحايا، وجعل لهجته المخففة تعبِّر من أعلى سلطة على الأقل بأن ضراوة المشاعر المضادة لأمريكا التي غرست في السياسة الروسية أصبحت

من الماضي، ولم يكن قد مضى سوى عامين على الاحتجاجات المضادة لحرب الناتو في صربيا وضد الأمريكيين، وكثير من الروس- لا كلهم بكل تأكيد- اقتدوا ببوتين.

تكدست أكوام من باقات الورد خارج السفارة الأمريكية، وعكست نبرة التلفاز الحكومي مزاج الكرملين على نحو متزايد، والتحول الملحوظ، ومما قاله بوتين لبوش: «الخير سوف ينتصر على الشر. أريدك أن تعرف أننا في هذا الصراع سنقف معًا»[4].

توخَّت استجابةُ بوتين تثبيت صحة انطباع بوش الأولي عنه، والتي لم يتوقعها أحد عندما بدأت الإدارة الجديدة. في أثناء حملته الانتخابية ضد آلغور في عام 2000م، استنكر بوش الحرب في الشيشان بأكثر مما استنكرها كلينتون، ورأى أنها وسيلة لتصوير الديموقراطيين على أنهم كانوا متساهلين مع روسيا، ومن ثم فقد بدا من الأيام الأولى لبوش في البيت الأبيض أن العلاقات مع روسيا بوتين مشحونة.

وفي يناير/ كانون الثاني 2001م، كان حرس الحدود الأمريكي لديه أمر باعتقال بافل بورودين بناء على أمر دولي، عندما حطت طائرته في نيويورك. وكان بوتين، بعد توليه المنصب، قد نقل بورودين بهدوء من منصبه في الإشراف على ممتلكات الكرملين، وعيَّنه في وظيفة ذات طابع احتفالي؛ مبعوثًا للدولة الاتحادية لروسيا وروسيا البيضاء؛ وهو كيان أُسس في عام 1996م، ولكن لن يعترف به أبدًا، وأغلق المدعي العام الروسي الجديد، فلاديمير أوستينوف، بهدوء التحقيق في نشاطات بورودين، ولكن ملفه لم يغلق لدى السويسريين. كارلا ديل بونتي عممت مذكرة قبض على بورودين، بتهمة قبول رِشا تبلغ قيمتها نحو 30 مليون دولار من العقود التي كانت قد صدرت لترميم القصر الكبير في الكرملين وغرفة المحاسبة، وبذلك فإن الفضيحة التي شوهت رئاسة يلتسين تلقي اليوم بظلالها على العلاقات مع الرئيس الأمريكي الجديد، والتي كانت موضوع المكالمة الهاتفية الأولى لبوتين مع بوش في 31 يناير/ كانون الثاني 2001م.

في غضون أسابيع بدا أن العلاقات بين الدولتين تسير نحو الأسوأ، ففي فبراير/شباط كشف (FBI) مكتب التحقيقات الفدرالي المشتبه الخلد منذ أمد طويل في صفوفها: كان روبرت هانسن، أحد كبار المشرفين على مكافحة التجسس، الذي تجسس لحساب الاتحاد السوفييتي ثم روسيا حتى عشية اعتقاله. وأدى انكشاف أمره إلى طرد خمسين دبلوماسيًّا روسيًّا من الولايات المتحدة، تلتها عملية انتقامية متبادلة بطرد خمسين من الأمريكيين من موسكو.

بدا لبعض الوقت أن الحرب الباردة قد دبت فيها الحياة من جديد ولكن عندما التقى بوش وبوتين للمرة الأولى في يونيو/حزيران عام 2001م في قلعة بردو، وهي دارة (فيلا) من القرن السادس عشر خارج عاصمة سلوفينيا، ليوبليانا، بدا كلا الرجلين حريصين على نزع فتيل تصاعد التوتر بينهما، ونظر كلاهما إلى المعلومات الاستخباراتية الموجزة عن كل منهما، على أمل كسر الجليد؛ فاستقبل بوتين بوش بتحية بدأها بالحديث عن كرة القدم الأمريكية (الرجبي)، التي لعبها بوش سنةً في الكلية، وقال له بوش: «حقًّا لعبت الرجبي» تلك هي إحاطة جيدة.[5] ثم انتقل بوتين إلى الحديث عن شؤون التجارة والأعمال الحرة، وكان يقرأ من خلال مفكرته المعدَّة من كومة من بطاقات الملاحظة، فقاطعه بوش وسأله عن الصليب الذي أعطته إياه والدته ليباركه في القدس، ورأى بوش المفاجأة في وجه بوتين، على الرغم من أنها مرت بسرعة، وأوضح بوش أنه قرأ عن هذه القصة، من دون الإشارة إلى أنها واردة في الكتاب الموجز الذي أعدته مسبقًا وكالة الاستخبارات المركزية (سي آي إيه). تذكر بوتين قصة الحريق في بيته الريفي، وكيف عثر عامل على الصليب في الرماد وأعاده له، قال له بوش المؤمن: «هذا هو المفترض أن يكون يا فلاديمير، وهذه هي قصة الصليب»[6].

وعندما ظهر الاثنان لعقد مؤتمر صحفي بعد ساعتين من الاجتماعات، التي حلت قليلًا من خلافاتهم، وخصوصًا معارضة روسيا للدفاعات الصاروخية التي تبناها بوش بأكثر عدوانية مقارنة بسلفه الديموقراطي، أظهرا دفئًا شخصيًّا ناضجًا كان لافتًا مع الأحداث الأخيرة؛ فقال عنه الرئيس بوش إنه «زعيم متميِّز»، مقارنًا بنظرة الروس إلى كلينتون الباحث

عن العيوب، ومرَّ مرورًا سريعًا على ذكر الشيشان أو حرية التعبير في روسيا. وعندما سئل هل يمكن أن يثق الأمريكيون ببوتين نظرًا إلى خلافاتهما حول عدد كبير من القضايا، ذكر بوش أنه ما كان له أن يدعوه إلى مزرعته في تكساس في نوفمبر/تشرين الثاني التالي، لو أنه لا يعتقد ذلك، وقال: «نظرت إلى الرجل في عينيه، فوجدته واضحًا جدًّا وجديرًا بالثقة، ودار بيننا حوار جيد، وكنت قادرًا على الشعور بروحه: رجل عميق الالتزام ببلده ومصالحها»[7].

لا بوش ولا بوتين أتى على ذكر قصة الصليب، أو حقيقة أن بوتين لم يكن يرتدي الصليب ذلك اليوم كما كان يفعل دائمًا، وفق ما قاله كاتب سيرته الذاتية (جلبه معه عندما التقى وبوش مرة أخرى في قمة مجموعة الثماني في جنوة الشهر التالي).

لم يقتنع أحد بهذه الشراكة الوليدة، وقال مايكل ماكفول، وهو أكاديمي أمريكي التقى بوتين أول مرة في بطرسبورغ قبل انهيار الاتحاد السوفييتي، لإحدى الصحف: «أستطيع أن أفهم الإستراتيجية في العلاقة، لكنها ذهبت بعيدًا، أعتقد أن هناك كثيرًا من الأسباب الوجيهة لعدم الثقة بالرئيس بوتين؛ فهذا الرجل تدرب على الكذب»[8].

سافر بوتين إلى ثمانية عشر بلدًا في العام الأول من توليه المنصب، ورافقته في كثير من الأحيان ليودميلا، محاولًا رسم صورة لروسيا الجديدة الحريصة على الانخراط في العالم، ومحو بعض بقايا الحرب الباردة. بعد تركيزه الأولي على السياسات الداخلية في روسيا، أصلح السياسة الخارجية لروسيا بأساليب لا يستطيع أبدًا أن يمارسها يلتسين، بسبب الشيوعيين والقوميين الذين كان لا يزال لديهم ذلك الحنين إلى قوة الاتحاد السوفييتي العظمى التي ضاعت. ما سعى إليه بوتين كان شيئًا أقل من التقارب مع الغرب، وخاصة مع أوروبا، وحتى مع (العدو الرئيس) الذي تدرب على مجابهته حين كان ضابط مخابرات. في عام 2001م أغلق المواقع العسكرية ما وراء البحار من العصر السوفييتي في الخارج، ومن ضمنها التنصت الهائل في لورديس، وكوبا، والقاعدة البحرية والاستخباراتية في فيتنام،

متعهدًا بأن تركز روسيا الجديدة مواردها على بناء قدراتها العسكرية لمواجهة أكثر إلحاحًا؛ وهي تهديد الجماعات الإسلامية في شمالي القفقاز.

بعد هجمات 11 سبتمبر/أيلول، خفف بوتين من معارضته العلنية لتوسيع حلف شمال الأطلسي في جولته المقبلة التي ستضم عضوية ليتوانيا، ولاتفيا، وأستونيا، جمهوريات البلطيق الثلاث التي كانت جزءًا من الاتحاد السوفييتي ولا تزال تشمل نسبة كبيرة من السكان الروس (وكان قد اقترح حين كان مرشحًا في مارس/آذار 2000م، أن روسيا قد تنضم يومًا ما إلى حلف شمال الأطلسي الناتو)[9]. وعندما ذهبت الولايات المتحدة إلى الحرب ضد طالبان وتنظيم القاعدة في أفغانستان في أكتوبر/تشرين الأول، لم يقدم بوتين خدمات المخابرات الروسية وحسب، بل قدَّم أيضًا المال والسلاح لقوات التحالف الشمالي، والأفغان الذين واصلوا مقاومة حركة طالبان التي استولت على السلطة في عام 1996م، وحاربت قبل ذلك الغزو السوفييتي. وأذعن بوتين أيضًا لإنشاء قواعد عسكرية أمريكية في أوزبكستان وقرقيزستان، ونشر جنود أمريكيين لأول مرة في أجزاء من الاتحاد السوفييتي السابق منذ الحرب الوطنية العظمى.

تحركات بوتين واجهتها مقاومة من الجيش الروسي، والبيروقراطية الجامدة التي لم تتخل عنها معظم شرائح المجتمع لكونها جزءًا من التراث السوفييتي. أصبح الجيش اليوم قوة متهالكة؛ بعد التخفيض الكبير الذي طرأ عليه من مليونين وثمان مئة ألف جندي في نهاية الحقبة السوفييتية إلى مليون تقريبًا، وبعد التسعينيات أصبح جيشًا متهالكًا جدًّا. وكانت غالبية المجندين يتعرضون بوحشية لمعاكسات الجنود الأكبر سنًّا المعروفين بـ(المضايقين)؛ وهي كلمة مشتقة [في الروسية] من الجَدِّ. وكانت الظروف في الجيش سيئة حتى إن معظم الأسر الروسية لا تستطيع العيش والحفاظ على أولادها دون الرِّشا وادعاء الأمراض بقصد الهجرة، وانتشرت عدوى الجريمة والفساد في صفوفه من أعلى إلى أسفل، مع قادة يؤجرون المجندين وكأنهم عبيد، ويبيعون الوقود في وحداتهم وقطع الغيار، بل والمركبات[10].

ومع أنه كان يفضل أن تكون السفن الحربية والطائرات المقاتلة خلفية لصورته الشعبية، فإن بوتين لم يكن رجلًا عسكريًّا في زمن الاتحاد السوفييتي. وكان الجنود والضباط في الجيش الأحمر ينظرون بازدراء إلى الضباط النخبة في الـ(كي جي بي)، وكان الشعور في كثير من الأحيان متبادلًا. ويبقى الجيش، على الرغم من ذلك، في صميم مهمة بوتين لاستعادة الأمة، مع تفهمه للحالة المزرية التي وصل إليها. وعلى الرغم من حرصه على تأسيس عقيدة عسكرية جديدة، وتحويل الجيش إلى قوة أصغر حجمًا، وأكثر حداثة، وأكثر انضباطًا من الناحية المهنية، فقد فرض رؤيته بحذر على المؤسسة الوحيدة التي ما زال لديها قدر من الاستقلال على الرغم من تراجع مكانتها.

قلما تطرق بوتين إلى السياسة العسكرية في الأشهر الأولى من رئاسته، وذلك ضمن إستراتيجيته لكسب الحرب في الشيشان، ومن ثم فقد رأى بعض المحللين العسكريين في روسيا أن بوتين ضعيف أو منعزل، ورأى آخرون أن إستراتيجيته مكيافيلية تسمح للقادة المتنافسين أن يسحق بعضهم بعضًا في مثل هذه الدولة الضعيفة التي قُدِّمت لبوتين، وكتب محلل عسكري بارز: «فضَّل بوتين التعامل مع الناس الذين تعثروا سياسيًّا، ويشعرون أنهم مقيدون، ومن ثم فسيبقون موالين للرئيس»[11].

بعد كارثة كورسك رفض بوتين التحرك السياسي النفعي لإقالة القادة الذين أضرت عدم كفاءتهم وكذبهم بشعبيته، واتجه بدلًا من ذلك إلى بناء الدعم الشعبي، ورفع الروح المعنوية؛ بزيادة رواتب الجنود، والتعهد بمزيد من الأموال للجيش، كما أمر بإعادة هيكلة القوات المسلحة؛ بخفض آخر لعدد هذه القوات. استعاد بوتين الراية الحمراء وفقًا لمعايير الجيش، بالنسر القيصري المزدوج، وموسيقى النشيد الوطني السوفييتي، لكن بكلمات جديدة (النشيد الذي اعتمد بعد انهيار الاتحاد السوفييتي لا يتضمن أي كلمات، وكان الرياضيون في دورة الألعاب الأولمبية الصيفية في سيدني عام 2000م قد اشتكوا لبوتين أنهم لم يتمكنوا من الغناء عندما وقفوا على المنصة لتسلم ميدالياتهم).

أثبتت هذه التحركات المهارة، وأثارت الحنين الوطنيَّ إلى الجيش لدى حشود كبيرة للناس، دون استعادة الأيديولوجية السوفييتية التي سُعدوا بتركها وراءهم. قد يكون بوتين غِرًّا في السياسة، لكنه أوجد توازنًا بين صراعات الماضي والمستقبل المشكوك فيه، وجاء ذلك طبيعيًّا؛ لأنه يعكس آراءه الخاصة؛ فهو لم يكن ضد النظام السوفييتي بالطريقة التي كان عليها يلتسين، ولكن بدلًا من ذلك انتقى أجزاءً من تاريخه التي تخدم فكرته عن روسيا الجديدة. فخلال مخاطبته الناخبين في فبراير/شباط 2000م، استخدم قولًا مأثورًا يُنسب على نطاق واسع له، ولكنه لم يكن في الواقع له: «أي شخص لا يأسف على انهيار الاتحاد السوفييتي لا قلب له، وكل من يريد أن يرى الاتحاد السوفييتي ببنيته السابقة لا عقل له»[12].

بوتين نفسه بدا متأرجحًا بين دوافعه؛ فقد احتفظ بتمثال فيليكس دزيرجينسكي على طاولته في جهاز الأمن الفيدرالي، لكنه عارض نداءات استعادة التمثال البرونزي للرجل في دائرة المرور حيث كان منتصبًا أمام لوبيانكا. ومجَّد النصر السوفييتي في الحرب الوطنية العظمى، لكنه عندما طلب إليه استعادة الاسم الذي أطلق على فولغوغراد زمن الحرب، المدينة التي حدث فيها الحصار الرهيب وعرفت باسم **ستالينغراد رفض**[13].

على الرغم من انتقاد بوتين للإخفاقات التي مني بها الاتحاد السوفييتي سابقًا، فإن تبنيه لبعض رموزه زاد من مخاوف المثقفين والليبراليين؛ فقد وجهت مجموعة من الفنانين والكتاب البارزين خطابًا مفتوحًا له، تحذره من مغبة استعادة النشيد السوفييتي، فكتبوا: «إن رئيس الدولة يجب أن يدرك جيدًا أن الملايين من مواطنيه (من بينهم أولئك الذين صوتوا له) لن يحترموا النشيد الوطني الذي يستخف بقناعاتهم ويهين ذكرى ضحايا القمع السياسي السوفييتي»[14]. وانتقد كذلك بوريس يلتسين خَلَفه للمرة الأولى منذ أن ترك منصبه قائلًا إن الموسيقى ترتبط في ذهنه بالبيروقراطيين السوفييت في أثناء حضورهم مؤتمرات الحزب الشيوعي، وقال يلتسين لكومسومولسكايا برافدا: «يجب على رئيس الدولة ألا يتبع على نحو أعمى مزاج الناس»[15]، وعلى العكس من ذلك؛ فالأمر متروك له لكي يؤثر في مزاجهم. ما

فعله بوتين أنه أثَّر في المزاج، وأخذ عينات من الماضي كما لو كان يأخذها من بوفيه، انتقاء واختيارًا من التاريخ الذي يقدمه إلى مجتمع منقسم إلى حد كبير حول ما يمثله ذلك التاريخ.

مضى على بوتين سنة في منصبه قبل أن يتحرك فجأة، وعلى نحو جراحي، ليجعل القيادة العسكرية المتمردة تحت سيطرته؛ فوزير الدفاع، المشير إيجور سيرجييف، تجاوز بالفعل سن التقاعد، وكان يمدد خدمته سنويًّا بتقديم طلب يناشد فيه يلتسين ثم بوتين في عام 2000م. سيرجييف، بلغ الثالثة والستين، وقد افترض أن إعادة تعيينه في أوائل عام 2001م ستكون مرة أخرى إجراء شكليًّا فقط[16]. كان بوتين مثل يلتسين من قبله؛ يفضل السرية والمفاجأة في توقيت إعلان قراره، ولم يكن أحد غيرُ مستشاريه الموثوقين يعرفون خطته، وسيرجييف لم يكن من بينهم، وإلا فلن يخطئ حساباته بمستوى الدعم الذي يلقاه في الكرملين.

يوم 28 مارس/آذار، اجتمع بوتين وفريقه للأمن القومي في الكرملين، وأعلن أن سيرجي إيفانوف هو من سيتولى منصب وزير الدفاع، وكان إيفانوف مقربًا جدًّا من بوتين، وكان يوصف أحيانًا بأنه صنوه. رقيق وشاحب، يفرق شعره بحدَّة إلى اليسار، يبدو على وجهه الضيق على الدوام، وكان قد انضم إلى الـ (كي جي بي) بعد دراسة الإنجليزية والسويدية في جامعة لينينجراد الحكومية. التقى بوتين في عام 1977م في البيت الكبير، حيث عملا معًا عامين قبل أن ينتقل إيفانوف إلى مهنة أخرى[17]. درس في معهد الراية الحمراء خارج موسكو وقد برز عام 1981م بصفته أحد عناصر المخابرات الخارجية الذين خدموا تحت الغطاء الدبلوماسي السوفييتي في السفارات في فنلندا، والسويد، وكينيا، وربما بريطانيا. ظلت سيرته الذاتية مبهمة، وهذا يشير إلى نوع التجسس الذي أوكل إليه، الذي يختلف عن مهمة بوتين. وخلافًا لبوتين لم يستقل طوال خدمته، وظل يترفع بالرتب في جهاز الاستخبارات الخارجية ما بعد السوفييتية حتى أصبح أصغر جنرال في روسيا الجديدة، وعندما أصبح بوتين مدير جهاز الأمن الفيدرالي، عيَّنه نائبًا، ونودي به في وقت لاحق إلى الكرملين، حيث انضم إلى الدائرة الداخلية لبوتين التي تتكون من مساعديه، وكان يحضر الاجتماعات

الأمنية الوطنية التي تعقد يوم الإثنين، ويحضر أيضًا اجتماعات السبت الأقل رسمية، واللقاءات الاجتماعية البحتة التي تجري في مقر الرئاسة كلما عنَّ لبوتين، وغالبًا ما يكون في وقت متأخر من الليل[18].

غالبًا ما يُصَور إيفانوف على أنه متشدد، ويعد من الحرس القديم الذي عكس تجربة بوتين وآراءه المحافظة، ويشاطر بوتين الهدف في إعادة هيكلة الجيش المتضخم غير الفاعل، وبعد أن تخلى عن رتبته العسكرية في الـ FSB، أصبح أول مدني يرأس وزارة الدفاع في تاريخ الاتحاد السوفييتي والتاريخ الروسي، وقد قال بوتين عندما أعلن تعيينه: «كما ترون، يأتي المدنيون إلى تولي المناصب الرئيسة في الوكالات العسكرية، وهذه أيضًا خطوة مدروسة، خطوة نحو نزع السلاح والعسكرة من الحياة الاجتماعية في روسيا»[19].

تعيينات بوتين- وإن كانت متواضعة- أشارت إلى قطيعة مع يلتسين، وقد عيَّن ليوبوف كوديلينا لتكون أول امرأة في منصب رفيع في وزارة الدفاع؛ لتشرف على الميزانية العسكرية. واستبدل بوزير الداخلية آخر من بطرسبورغ، هو بوريس جريزلوف، الذي يرأس الكتلة الموالية لبوتين في مجلس الدوما، لكنه لم يخفض أي شخص باستثناء وزير الشؤون النووية، يفجيني أداموف، الذي اتهمته محكمة أمريكية في وقت لاحق باختلاس 9 ملايين دولار من الأموال المخصصة لتعزيز الأمن في المواقع النووية[20]، وقد أعلنت صحيفة إزفستيا أن فريق بوتين «أصبح كلًّا متكاملًا كقبضة اليد»[21].

رأى إيفانوف وهو وزير للدفاع، وبشيء من القلق، احتمال تدخل أمريكي في محيط روسيا، وبعد ثلاثة أيام من هجمات 11 سبتمبر/أيلول استبعد إيفانوف «إمكانية قيام الناتو بعمليات عسكرية في إقليم دول آسيا الوسطى»[22]. وشعر بوتين- على الرغم من ذلك- أن الولايات المتحدة أدركت اليوم خطر الإسلام بعد أن تعاظم، وسافر إلى ألمانيا بعد أسبوعين، وألقى كلمة في البرلمان الألماني، البوندستاغ، مبتدئًا تصريحاته باللغة الروسية، ثم تحول إلى (لغة غوته، وشيلر وكانط)، وقال: «اليوم يجب أن نعلن أن الحرب الباردة قد انتهت!»، فبادله

المستشار الألماني جيرهارد شرودر الإعلان بأن العالم يجب أن يعدل من انتقاداته للعمليات العسكرية الروسية في الشيشان (حتى عندما ضغط على بوتين سرًّا للتدخل في المحاكمة العسكرية التي تشمل تورط جنود روس بجرائم حرب متهمين بها)[23].

وعندما عاد بوتين إلى موسكو يوم 24 سبتمبر/أيلول، ذهب إلى وزارة الدفاع، المبنى الأبيض الثقيل القابع في ميدان بولفار وسط المدينة، وأمر القادة بالعمل مع الأمريكيين، متجاوزًا إيفانوف، الذي تخلى عن معارضته العلنية للعمليات الأمريكية في آسيا الوسطى.

توقع بوتين أن يذعَن له في نظام ما بعد الحرب الباردة، فاستثمر كثيرًا في تطوير علاقته الشخصية مع بوش، وكان أول رئيس روسي أو سوفييتي منذ لينين يتحدث بلغة أجنبية، وقد أخذ يتلقى دروسًا في اللغة الإنجليزية ساعة يوميًّا، ليتعلم لغة الدبلوماسية والتجارة الأمريكية، واستخدم مهارته اللغوية المتواضعة للتحدث على انفراد مع الرئيس بوش لكسر الجليد. في سلوفينيا، وهما يمشيان في الحديقة، أشار إلى القواسم المشتركة بينهما؛ «أرى أنك أسميت بناتك باسمَي أمك وحماتك»، فأجابه بوش: «ألستُ دبلوماسيًّا جيدًا؟!»، فضحك بوتين وقال له: «لقد فعلت الشيء نفسه!»، في السر كان يشعر أنه يمكن أن يصارح بوش حول خلافاتهما، في محاولة لجعله يتفهم الصعوبات التي تواجهها روسيا- وتواجهه هو شخصيًّا- في الانتقال من أنقاض الاتحاد السوفييتي، وسعى إلى شيء من التعايش مع الولايات المتحدة، حتى مع حلف شمال الأطلسي.

عندما التقى بوتين بوش مرة أخرى على هامش مؤتمر قمة التعاون الاقتصادي لشعوب آسيا والمحيط الهادئ في شانغهاي في أكتوبر/تشرين الأول، اقترح بوتين تغييرات في معاهدة الحد من الصواريخ البالستية التي تسمح بإجراء بعض الاختبارات لنظام الدفاع الصاروخي الأمريكي التي يطمح إليها بوش، مع إبقاء الأحكام الرئيسة للمعاهدة كما هي عليه سنةً أو سنتين أخريين. رأى أن المعاهدة حاسمة في الدفاع الإستراتيجي لروسيا، وأن التأخير سيمنح الوقت لعلمائها لتطوير أسلحة جديدة تضاهي المنظومة الأمريكية.

وألح أيضًا على بوش للموافقة على خفض الترسانة النووية التي يمتلكها كل بلد، وهي خطوة أساسية لبوتين لخفض التكاليف المستدامة للجيش الروسي، وقد عدَّ بوش اقتراحه حلًّا معقولًا، ووعد بدراسته، لكن كانت إدارته تعاند بعد غزو أفغانستان؛ فقد تشبثت وزارة الدفاع الأمريكية بموقفها، ولم توافق على مقترح بوتين بإبلاغ روسيا عن كل اختبار سابقًا، وأن يسمح لها بمراقبة تقدُّم المنظومة الدفاعية التي يمكن أن تبطل مكانة روسيا بصفتها قوة نووية عظمى. عندما وصل بوتين إلى واشنطن في نوفمبر/تشرين الثاني في أول زيارة له وهو رئيس إلى الولايات المتحدة، كان يتصوَّر أن الصفقة الكبرى لا تزال ممكنة، لكن تبخرت كل آماله حينما التقى بوش في البيت الأبيض.

«**يا إلهي!** هذا جميل!»؛ قالها بوتين بعفوية عندما دخل المكتب البيضاوي صباح يوم 13 نوفمبر/تشرين الثاني، وكان الضوء يتدفق من النوافذ الجنوبية، فارتبك بوش، كما مساعديه، من التناقضات التي بدت على «ضابط المخابرات السابق من الاتحاد السوفييتي الملحد»[24]؛ ولم يتصوروا يومًا أن ضابط مخابرات يمكن أن يستجرهم لجانبه، ولكن كان بوش على يقين أنهم سيتغلبون على خلافات الماضي؛ فالقضية المشتركة التي عملا عليها عقب هجمات 11 سبتمبر/أيلول قد أثمرت في رأيه حتى التقيا: في الليلة السابقة تخلت طالبان عن العاصمة الأفغانية كابول، وتراجعوا بحالة من الفوضى، وقال له بوش: «هذا شيء قد ينحل كبدلة رخيصة»، ولم تتمكن كوندوليزا رايس، التي تتحدث الروسية، من ترجمة رد بوتين بوتين، لكنها قالت إنه وافق بشدة[25].

في اليوم التالي سافر بوتين وزوجته إلى مزرعة بوش في كروفورد بولاية تكساس، واستقبلهم بوش الأب والابن في جو ماطر، وكانت ليودميلا تحمل بيدها وردة واحدة صفراء قدمتها إلى لورا بوش، رمزًا لتقاليد ولاية تكساس. نزلوا في دار الضيافة بالمزرعة المجاورة لعائلة بوش، ووصلوا لتناول العشاء قبل ساعة من الموعد، إذ نسوا فارق الزمن عن واشنطن، وعندما بدأ العشاء، تناولوا الشواء، واستمعوا إلى عازف البيانو فان كليبيرن، وفرقة الأرجوحة بأغنياتها الريفية مثل (جو أبو العين القطنية). لبست ليودميلا فستانًا مطرَّزًا

بالأحمر والأبيض والأزرق، وعندما عرض بوتين النخب بدا أنه متأثر جدًّا، وقال: «لم أزر من قبل منزل قيادي عالمي آخر»، وأضاف أن الولايات المتحدة «محظوظة في مثل هذا الوقت الحرج من تاريخها أن يكون رجل من هذا الطابع رئيسًا لها».

استمرت الصداقة الحميمة عندما التقيا الطلاب في مدرسة كروفورد الثانوية في اليوم التالي، وبعد ذلك سافر بوتين إلى نيويورك، وزار أنقاض مركز التجارة العالمي، التي لا يزال يتصاعد منها الدخان بعد شهرين من الهجوم.

بعد ثلاثة أسابيع اتصل بوش هاتفيًّا ببوتين في موسكو وأبلغه بالانسحاب من معاهدة حظر الصواريخ البالستية ABM، على الرغم من اعتراضات بوتين. كان الامتياز الوحيد الذي انتزعه بوتين من بوش بعد ستة أشهر من المحادثات، وأربعة اجتماعات بين الزعيمين، أن بوش أبلغه بالانسحاب من المعاهدة قبل أسبوع من إعلان هذه الخطوة علنًا في منتصف ديسمبر/كانون الأول وذلك من باب المجاملة.

في جميع النقاشات التي دارت حول أفغانستان والدفاع الصاروخي، نجح بوتين في كبت أي حماس وطني طوال مدة تعايشه مع أفعال بوش وسياساته. وكان يلتسين قد هاجم الولايات المتحدة والغرب لحماية أجنحته السياسية، أما بوتين فاختار بدلًا من ذلك دعم المجموعة الأكثر انتقادًا لأمريكا والموجودة في روسيا، ليعزز سيطرته على البرلمان بنفس الطريقة البطيئة، والخفية، والمنهجية التي مارسها مع الجيش.

إحدى المبادرات التشريعية المبكرة لبوتين في عام 2000م كانت إعادة هيكلة المجلس الاتحادي، الذي يضم حكام تسعٍ وثمانين من مناطق البلاد، وممثليهم الذين، كما أثبتوا وجودهم في قضية سكوراتوف، يعملون اليوم مستقلين عن الكرملين. وتأتي هذه الخطوة إلى جانب تعيين سبعة مبعوثين إقليميين، وقد واجهت معارضة في البداية، ولكنها نجحت في نهاية المطاف في وضع القادة الإقليميين تحت سيطرة بوتين. ومع مرور الوقت أصبح مجلس الشيوخ الذي أتعب يلتسين محفلًا يعج بالموالين لبوتين.

في السنوات الأولى لبوتين في الحكم، سيطر الكرملين أيضًا على أغلبية غير ساحقة في مجلس الدوما، وكان بعض إصلاحاته المبكرة- خصوصًا محاولة السماح للخصخصة الزراعية- ما زالت تواجه معارضة. ازدرى بوتين السياسة الحزبية والمناورات التشريعية، مثلما ازدراها حين كان نائب أناتولي سوبتشاك في مجلس مدينة بطرسبورغ؛ فهو يرى أن الكتل السياسية في السلطة التشريعية ينبغي أن تكون الأدوات التنفيذية للكرملين، وزعم أنه لا يرغب في إعادة إنشاء حكم الحزب الواحد الذي حكم روسيا باسم الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي، واعتزم إنشاء عدد من الأحزاب، التي تعتمد اعتمادًا فعالًا على الكرملين، وفي يوليو/تموز 2001م وقع بوتين على قانون جديد للانتخابات؛ للحد من عدد الأحزاب، بوضع شرط حصول الحزب على عضوية أكثر من خمسين ألف منتسب موزعين على نصف البلاد على الأقل. ظاهريًّا كانت الفكرة إنشاء نظام بحزبَين أو ثلاثة أحزاب كتلك الموجودة في أوروبا، والفرق الوحيد هو أن جميع الأحزاب ستكون موالية، أو على الأقل مطواعة، وعلى الرغم من إعلان التزامه بالديموقراطية، ظل صبره قليلًا في المناقشات ذات النتائج غير المؤكدة. وعلى الرغم من أن حزب الوحدة قد سبق أن شارك في السيطرة على لجان البرلمان مع الشيوعيين، فإنه بغية تعزيز قوته نسق مساعدو بوتين الاندماج مع حزب بريماكوف ولوجكوف، وأعلنوا ذلك في المؤتمر الجديد في 1 ديسمبر/كانون الأول عام 2001م، وقرر الحزب الجديد أن يسمي نفسه بحزب روسيا المتحدة، المنظمة التي امتلأت بالضباط والبيروقراطيين من (حزب سلطة) بوتين.

كان العقل المدبر لإستراتيجية سياسة الكرملين هو فلاديسلاف سوركوف، وهو شيشاني المولد، عبقري الدعاية، ولديه أرضية في الاستخبارات العسكرية، ومن الذين عملوا في عقد التسعينيات لثلاثة بنوك لثلاثة من القلة النخبوية في روسيا، من ضمنهم ميخائيل خودوركوفسكي. انضم إلى فريق موظفي ألكسندر فولوشين حينما كان يلتسين رئيسًا، وساعد- أكثر من أي شخص آخر- في رسم الصورة العامة الحِرَفية لبوتين، وهندس إستراتيجياته السياسية. كان شابًّا ساخرًا للغاية، من محبي موسيقى الراب الأمريكية- فقد

احتفظ بصورة توباك شاكور بجانب صورة بوتين- وشكسبير الذي عدَّ عمله ينبوع الإلهام السياسي، حتى قال الروائي والناشط الروسي، إدوارد ليمونوف، ذات مرة: «لقد حوَّل سوركوف روسيا إلى مسرح رائع لما بعد الحداثة، حيث النماذج السياسية القديمة والجديدة».

في أبريل/نيسان 2002، انقلب سوركوف على قيادة مجلس الدوما فيما أصبح يعرف باسم (**انقلاب المحفظة**)؛ فقد أطاح حلفاء الكرملين بالشيوعيين في وظائف اللجنة التي عرضها بوتين عليهم بعد وقت قصير من الانتخابات عام 1999م، في حين ألقى المتحدث الشيوعي غينادي سيليزنيوف بدعمه للكرملين متخليًا عن رفاق حزبه. ثم ضرب بوتين- الذي لم يبد اهتمامًا بالمشاحنات الصغيرة بين الدوقات والنبلاء كما هو حال القيصر- ضرب رأس القيادة الشيوعية بلا رحمة، ولم يعد بإمكان غينادي زغانوف، رئيس الحزب، الذي مثَّل ذات مرة تهديدًا قويًّا لكرملين يلتسين، اليوم إلا أن يتلفظ بالكلمات النابية ليعبِّر عن احتجاجه، وقال بمرارة: «حتى في سكره، كان يلتسين يمتلك الشجاعة لجمع قادة الفصائل المختلفة في اللحظات الحرجة والبحث معهم عن حل، بدلًا من شن حرب جديدة»[26].

دافِعُ بوتين لإجراء تغييرات في القيادة التشريعية أصبح واضحًا بعد أسبوعين عندما ألقى خطابه السنوي أمام المجلس الاتحادي، الذي يتألف من مجلسي الشيوخ والنواب في البرلمان؛ ففي قاعة رئاسة الكرملين الرخامية، عدد بوتين إنجازاته: انخفاض نسبة البطالة، وزيادة في الدخل، وميزانية متوازنة، وعودة روسيا إلى مكانتها بوصفها ثاني أكبر منتج للنفط في العالم، لكن عبَّر عن أسفه لبيروقراطية الحكومة (الكبيرة والخرقاء)، والوزارات المتخلفة التي لا تزال تعمل وكأنها (فروع للاقتصاد المركزي). كان يحتاج إلى أغلبية برلمانية لا لمناقشة القضايا، وإنما لتمرير التشريعات اللازمة للكرملين لفرض الحلول. سرد على مدار ساعة مجموعة من الإصلاحات الليبرالية التي ترمي إلى تحويل السلطة القضائية، وإنشاء نظام الرهن العقاري لتوسيع سوق الإسكان، وإنهاء مسوَّدة المشروع، وتقديم جيش متطوع محترف، وكتابة اللوائح التي تعجِّل عضوية روسيا في منظمة

التجارة العالمية. كان جدول أعمال طموحًا، ولديه اليوم قليل من العقبات التي تحول دون فرض ذلك.

في خطابه، لم يخصص بوتين أكثر من دقيقة للحرب التي استحوذ بها على السلطة، لأنها لم تعد الانتصار الذي وعد به؛ إذ في عام 2001م أعلن بوتين أن انسحاب الجيش الروسي من الشيشان سيبدأ قريبًا، ولكن الحرب لم تنته بعد. وراقبت القوات الاتحادية حدود الجمهورية ومعظم المدن والقرى، ولكن في النهار فقط، واستمرت هجمات المتمردين لقتل الجنود الروس، الذين ثأروا باحتلال القرى الذي تمخض عنه الاعتقالات والتعذيب والموت[27]. وعلى الرغم من وضع الكرملين للقائد المتمرد والإمام أحمد قاديروف، زعيمًا مواليًا للجمهورية، لم يتمكن الجيش والـ FSB من سحق التمرد، وبقي قادته طلقاء، يختبئون في الجبال الواقعة على الحدود، أو في القرى التي بقيت ملتزمة باستقلال الشيشان.

تلاشت الشعبية الأولى التي نالها بسبب الحرب؛ فقد أظهرت استطلاعات الرأي أن معظم الروس لا يعتقدون بإمكانية كسبها، وهددت الشيشان بأنها ستصبح مستنقعًا يجب أن يُحل- كما ترى الغالبية- من خلال محادثات السلام، وأصبحت الخسائر المتزايدة تهدد لا إستراتيجية بوتين فقط، وإنما رئاسته أيضًا. ظلت الحرب حربًا صليبية تخص بوتين، وكانت الدعاية الرسمية ناجحة حتى إنه «بدأ يُصدق الإصدارات المنقَّحة للأحداث، ليقع ضحية ما فعلته يداه»[28]، وعندما حلت كارثة على نطاق واسع عندها فقط لم تعد تستطيع دعاية الكرملين أن تخفي الخراب، ولمح بوتين أوجه قصور الإستراتيجية التي اتخذها والبيروقراطيات الأمنية التي اعتمدها في التنفيذ.

يوم 19 أغسطس/آب اقتربت مروحية مي Mi 26 من القاعدة العسكرية الروسية الرئيسة في الشيشان، في فضاء جوي مترامي الأطراف في خان قلعة، خارج جروزني، كانت تحلق أكبر طائرة في العالم، مصممة لحمل أطنان من المعدات، وما لا يقل عن ثمانين راكبًا، والطاقم، وكانت وزارة الدفاع قد أوقفت في عام 1997م استخدامها لنقل الركاب، وحصرتها

في البضائع؛ في هذا اليوم كان 147 شخصًا على متن الطائرة من الجنود والمدنيين، من بينهم زوجات عدد من الضباط، وشاب واحد على الأقل، وهو ابن ممرضة في الجيش صعد الطائرة متطفلًا. وبينما كانت الطائرة تهبط أصابها صاروخ في محركها الأيمن، فهبطت على بعد ألف قدم من المهبط المخصص، وسط ألغام زرعت لحماية محيط القاعدة، وكانت محملة بالوقود لرحلة العودة، فانفجرت الطائرة وتحولت إلى كتلة من اللهب، وحوصر معظم الركاب الذين نجوا من هبوطها داخل المقصورة التي تحترق، والذين نجوا من ذلك اصطدموا بالألغام في أثناء هروبهم.

عاد الجيش، مرة أخرى، إلى الكذب حول سبب الإصابات التي وصلت في نهاية المطاف إلى 127، من بينهم الطفل ووالدته الممرضة، وكانت هذه أسوأ كارثة لطائرة حوامة في التاريخ، وأكبر خسارة في الأرواح في الحرب، وكارثة عسكرية أكثر فتكًا من كورسك.

بوتين، بعد أن تعلم الدرس السياسي الصعب من كورسك، اعترف على الفور بالحادث، ووعد بالتحقيق مع سيرجي إيفانوف المسؤول عن ذلك. وفي اليوم التالي سافر إيفانوف إلى خانكالا، وأقال قائد جناح الطيران في الجيش، العقيد جنرال فيتالي بافلوف، الذي احتج بأنه كان كبش فداء. اشتكى بافلوف من صيانة المروحية، وقال إن قرار منع تحميل الركاب يطبق فقط في وقت السلم، في حين أن البلاد لا تزال في حالة حرب. «إذا لم يكن هناك قتال، فلماذا تموت قواتنا على أيدي مسلحين؟»[29].

زاد شعور بوتين بالإحباط من قادته، وبعد يومين من حادث التحطم التقى سيرجي إيفانوف أمام كاميرات التلفاز في قاعة كبار الشخصيات في مطار خارج موسكو، وبصرف النظر عن العناوين الرئيسة والمؤتمرات الصحفية، التي بثها التلفاز، أصبح اللقاء الثنائي المتلفز وسيلة مميزة للتواصل عند بوتين، والسيناريو المُعَد للقائد الذي لا يناقش، والذي يمتدح ويشجع أو يتغطرس على مرؤوسيه، حتى مع صديق مقرب كإيفانوف. سأله بوتين

مستفسرًا: «كيف يمكن أن يحدث ذلك، مع أن وزير الدفاع أصدر أمرًا يحظر فيه استخدام مروحيات من هذا النوع لنقل الناس، ولا يزال يجري نقلهم؟»[30].

أجاب إيفانوف، مؤديًا دوره في توجيه اللوم العلني: «لا يوجد ما يسوِّغ ذلك يا فلاديمير فلاديميروفتش». وبعد أسبوعين اضطر الجنرال بافلوف إلى تقديم استقالته، ووُبِّخ تسعة عشر من القادة الآخرين، من ضمنهم اثنا عشر من الجنرالات، وكان الشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه بوتين بتاتًا في أعقاب الكارثة هو التغيير في إستراتيجية الحرب.

على الرغم من تقديم الوسطاء الاقتراحات لإجراء محادثات سلام في وقت سابق من ذلك العام، فإن بوتين لم يأخذ بها، وكان الشيء الوحيد الذي لا يقبل بغيره من المتمردين الشيشان هو الاستسلام غير المشروط. وجاء ردُّ المتمردين بعد ذلك بوقت قصير في شريط مصور أظهر وجود الصاروخ المحمول على الكتف الذي أسقط المروحية، والراوي كان أصلان مسخادوف- على الرغم من أن ثمة شائعات تحدثت عن وفاته- ويحيط به الرجال الملتحون الذين كان يشير إليهم باسم (**مجاهدوننا**)، وقد جلس أمام العلم الأخضر للشيشان، الذي لم يعد يحمل صورة الذئب، رمز النضال من أجل الاستقلال لأكثر من عقد من الزمن، بل استبدل به سيف وآية قرآنية[31].

قال شاب وهو يتحدث ببطء أمام الكاميرا ويجلس متربعًا أمام جهاز الحاسوب المحمول: «**جئنا** إلى العاصمة الروسية لوقف الحرب، أو أننا سنموت هنا في سبيل الله»[32]، وكان الرجل الذي يتحدث هو موفسار باراييف، وهو مقاتل متمرد وابن شقيق أحد القادة الشيشان الأكثر شراسة، أربي باراييف، وكانت القيادة العسكرية الروسية في شمال القفقاز قد أعلنت انتصارها قبل أسبوعين، وقالت إن موفسار باراييف قُتل في 10 أكتوبر/تشرين الأول 2002م، متناسية أنه أُعلنَت وفاته في العام الذي سبقه[33]. اليوم باراييف في موسكو، وهو على مسافة ثلاثة أميال ونصف من الكرملين الذي يعمل فيه بوتين في مكتبه كعادته حتى وقت متأخر، ولن يغادره في الأيام الثلاثة المقبلة[34].

باراييف الذي مرَّ عيد ميلاده الثالث والعشرين قبل ثلاثة أيام، وكان خجلًا منه، هو اليوم الوجه الجماهيري (لمفرزة خاصة) من المقاتلين؛ مكونة من 22 رجلًا وتسع عشرة امرأة، وصلوا إلى موسكو في وقت سابق من الشهر، وقد سافروا إما فرادى أو مثنى في القطارات والحافلات من داغستان، يتجنبون تدقيق الشرطة التي تخشى المسافرين القادمين من القفقاز، وقد جاؤوا بأمر من (الأمير العسكري الأعلى) للشيشان، شامل باساييف، وإن كانوا قد أعلنوا ولاءهم على مضض لرئيسها المزعوم، أصلان مسخادوف. وقد أمضوا أسابيع في موسكو يستعدون لهجوم يعيد الحرب الدموية والوحشية إلى العاصمة، وأرادوا مكانًا عامًّا يضمن احتجازًا جماعيًّا للرهائن من المواطنين الروس العاديين، وبعد أن فكروا في البرلمان، استقر رأيهم على مسرح.

والمسرح الذي اختاروه هو في شارع دوبروفكا جنوب غربي موسكو، القاعة التي لا تزال تعرف باسمها السوفييتي، قصر الثقافة لمصنع محمل الكريات رقم 1 الحكومي، وهناك جزء من المبنى خُصص للمثليين جنسيًّا ليكون ناديًا لهم (يرتادونه) «وكان مأهولًا بأعضاء في البرلمان ورجال الأعمال البارزين، والسياسيين كذلك»، كما يشاع، ويجري ترميمه وتحديثه. تنكر مقاتلو مجموعة باراييف بهيئة عمال بناء، ووضعوا خططًا لاقتحام المسرح[35].

كان المسرح يعرض أول عرض مسرحي موسيقي على نمط برودواي روسيا: نورد أوست، استنادًا إلى الرواية السوفييتية الشعبية، **القبطانان**، لمؤلفها فينيامين كافيرين. كانت القصة ميلودراما رومانسية امتدت طوال النصف الأول من القرن العشرين من استكشاف القطب الشمالي، وحصار لينينجراد في الحرب الوطنية العظمى. والتلحين الموسيقي لجورجي فاسيلييف، الذي أنفق أربعة ملايين دولار لإنتاجها والترويج لها على لوحات وملصقات موزعة في جميع أنحاء المدينة، فقد حسب أن الطبقة الوسطى الجديدة في روسيا التي استفادت من الازدهار الاقتصادي الذي أوصله بوتين إلى عامة الشعب، قد انتعشت بما يكفي لدفع 15 دولارًا سعرًا للتذكرة. وفي ليلة العرض رقم 323، في 23 أكتوبر/تشرين الأول 2002م، تحرك الشيشان عندما بدأ الفصل الثاني، وكان الممثلون الذين يرتدون اللباس

الموحد لطياريي القوى الجوية للجيش الأحمر يرقصون رقصة النقر على المسرح عندما دخل رجل ملثم من الجهة اليسرى لخشبة المسرح، فأصيب أقرب ممثل له بالصدمة، ولكن معظم الجمهور اعتقد أن ذلك جزء من الأداء، إلى أن أطلق النار في السقف من بندقيته الرشاشة AK-47، وانضم إليه مزيد من الرجال المقاتلين المموهين على خشبة المسرح[36].

أغلق مقاتلو باراييف القاعة الرئيسة، وفخخوا المبنى بالأسلاك والمتفجرات التي وضعوها عند الأعمدة التي تدعم شرفة المسرح، واتخذت النساء اللواتي يرتدين الحجاب الأسود مع نقوش عربية مواقع بين الجمهور؛ يحملن مسدسات، ويرتدين أحزمة بدت أنها أحزمة ناسفة، وهددن بتفجير أنفسهن إن أبدى أي شخص مقاومة، أو تجرأت السلطات على اقتحام المبنى، ولم تكن أعمارهنَّ تتجاوز تسع عشرة سنة، وكنَّ يعرفن بـ(الأرامل السود)، وهن إما زوجات المقاتلين الشيشان الذين لقوا حتفهم في الحرب أو بناتهم أو أخواتهم. طوال سنوات القتال في الشيشان كانت التفجيرات الانتحارية نادرة، وأثبتت أن المرأة أصبحت نذيرًا مرعبًا في المنحى الذي اتخذته الحرب في الشيشان.

في الصالة صرح أحدهم: «نحن في سبيل الله»، وأضاف: «إذا متنا هنا فلن تكون النهاية، فهناك كثيرون ينتظرون، وسوف نستمر»[37]. كان في الصالة 912 شخصًا، ومن ضمنهم فريق العرض والطاقم المسرحي والأجانب من أوروبا والولايات المتحدة، وتكشف الحصار على مدى اليومين المقبلين عن مشهد سوريالي متلفز، وخاطب باراييف الرهائن أنهم يستطيعون استخدام هواتفهم للاتصال بأحبائهم وأقاربهم، ويخبروهم أنهم سيموتون إذا لم تنه السلطات الحرب في الشيشان.

اليوم يحاصَر بوتين أيضًا، فقد تعهد بالقضاء على العصابات في الشيشان، لكن الحرب مستمرة على الأرض منذ ثلاث سنوات، تلتهم الجنود الروس وآلاف الشيشان، ومن ثم فقد خسر الدعم الشعبي للحرب الذي كان في البداية، وأخفق الجيش في قمع التمرد، واليوم تخفق الـ FSB أيضًا إخفاقًا ذريعًا في وقف هجمة في قلب موسكو. ألغى بوتين خططه للسفر

إلى ألمانيا والبرتغال ثم إلى المكسيك، وكان من المقرر أن يلتقي جورج بوش مرة أخرى، والتقى مدير جهاز الأمن الفيدرالي، نيكولاي باتروشيف، وأمره بالاستعداد للهجوم على المسرح، وأجاز له التفاوض فقط لكسب الوقت، فأرسلت FSB ثلاث فرق من القوات الخاصة إلى مكان الحادث، واستنكر ذلك رئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف، ورأى أن الإنقاذ يمكن أن يؤدي إلى سقوط مئات القتلى، فأرسله بوتين بدلًا منه للقاء دولي في المكسيك، يريد- على ما يبدو- التخلص منه[38].

عدد من السياسيين البارزين والصحفيين، والضباط، ومن ضمنهم ممثل الشيشان في مجلس الدوما، أصلان بيك أصلاخانوف، اتصلوا هاتفيًّا بالخاطفين في الداخل، وسمحوا لهم بالتفاوض معهم في نهاية المطاف، فأُطلق على الفور تسعة وثلاثون رهينة، معظمهم من الأطفال. بعد ذلك دخل جريجوري يافلينسكي، الذي ينتمي إلى حزب يابلوكو وانتقد الحرب انتقادًا لاذعًا، إلى المسرح في تلك الليلة بعد حصوله على موافقة من الكرملين، الذي بدا عاجزًا عن السيطرة على وسطاء يدخلون ويخرجون، أو على المكالمات الهاتفية، أو فيديو مطالب الإرهابيين في وقت لاحق. ذهل بوتين من المقاتلين «الصغار جدًّا»، كانوا مجرد أطفال عندما انهار الاتحاد السوفييتي وأعلنت الشيشان استقلالها عام 1991م[39]، ويشك حتى في ذهابهم إلى المدرسة؛ فكل ما عرفوه تعلموه في ميدان المعركة في القفقاز، وقلما استطاعوا التعبير عن مطالبهم، فضلًا عن التفاوض، وعندما طالبوا بوضع حد للحرب، سأل يافلينسكي: «ماذا يعني هذا؟». ثم غادر محبطًا، ولكن كان يأمل أن تقلل الخطوات الإضافية، ومن بينها إطلاق مزيد من الرهائن، من عدد الضحايا على الأقل. عاد يافلينسكي إلى بوتين في الكرملين، وشارك في سلسلة من الاجتماعات معه بشأن التقدم الذي تحققه المفاوضات، واتضح له وقتها أن بوتين يرأس أيضًا مجموعة منفصلة من الاجتماعات مع باتروشيف وبعض الأمنيين الآخرين، وأن أناسًا من أمثاله لم يدعوا للحضور.

في اليوم الثاني من الحصار أصبحت الأوضاع في القاعة سيئة جدًّا مع استسلام الرهائن للجوع والجفاف والإرهاق والخوف، وأطلق **الإرهابيون** النار على عدة أشخاص، من

بينهم امرأة ركضت داخل المبنى لسبب غير مفهوم، وعنصر مغاوير الـ FSB الذي اقترب من الفناء الخارجي، وعلى الرغم من ذلك واصل الوسطاء الدخول إلى المسرح، ومنهم آنا بوليتكوفسكايا، وهي صحفية تقاريرها لاذعة من الشيشان، وكانت قد تحدت وأغضبت الجيش والكرملين، وقد نجحت هي والطبيب البارز، ليونيد روشال، في إقناع المقاتل الذي يسمي نفسه أبا بكر بالسماح لها بإدخال صناديق من العصير للرهائن. بوليتكوفسكايا التي ولدت في نيويورك لدبلوماسيين سوفييتيَّين عُيِّنا في الأمم المتحدة، كانت أحد الصحفيين الروس الشجعان الذين غطوا الحرب، وظلت تنتقد هذه الحرب بكل ما أوتيت من فصاحة وحماسة. وتعاطفت تقاريرها مع جميع الذين عانوا؛ من مجندين روس، ومتمردين، وما بينهما من مدنيين محاصرين، لكنها كرهت قادة الجيش غير الأكفياء وغير الإنسانيين، وعلى رأسهم القائد العام الذي تظن أنه من جاء بهذه الكارثة إلى القفقاز. لقاؤها بأبي بكر جعلها تحس بأن ساقيها «تتحولان إلى هلام»، لكنها استطاعت إقناعه بأن يسمح لها بلقاء اثنين من الرهائن؛ أحدهما صحفية تدعى آنا أدريانوفا، التي تحدثت يائسة وقالت: «نحن كورسك الثانية»[40].

مزيد من الإفراجات بدا وشيكًا، بعد أن سُمح لرهينة أمريكي، هو ساندي بوكر، بمهاتفة السفارة الأمريكية، وأخبر دبلوماسيًّا هناك أن باراييف وافق على إطلاق الأجانب في صباح اليوم التالي[41]. أعلن الكرملين استدعاء مبعوث بوتين إلى المنطقة الجنوبية فيكتور كازانتسيف، كان المتمردون يعتقدون أنه سيصل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، لكنه لم يتوجه إلى موسكو.

بدأ اقتحام المسرح، بناء على أوامر بوتين، بعد الساعة الخامسة صباحًا بوقت قصير، وكان يبدو أن الإرهابيين استرخوا وتوقعوا مزيدًا من المفاوضات في اليوم التالي. وتسللت القوات الخاصة الروسية إلى المبنى من خلال نادي مثليي الجنس، وأدخلت أجهزة تنصت لمعرفة مواقع الإرهابيين، وبسبب الخوف من الانفجارات التي قد تدمر المبنى، كان عليهم

قتل الإرهابيين، لا القبض عليهم[42]، ولذلك فقد بدأ تسريب الغاز عديم الرائحة إلى القاعة الرئيسة، بضخه من خلال أنظمة التهوية في المبنى. كان الغاز أحد مشتقات رذاذ مخدر قوي (الفنتانيل)، طورته مخابر الـ FSB، وقد تسبب إطلاقه بإرباك للخاطفين والرهائن، واتصلت آنا أدريانوفا، الرهينة التي قابلتها بوليتكوفسكايا، هاتفيًّا بمحطة إذاعة صدى موسكو وقالت إن الإرهابيين بدا عليهم التردد وليسوا مستعدين لإعدامنا، وقالت بعد سماع دوي إطلاق النار: «هل تسمعين؟ سنذهب جميعًا إلى الجحيم»[43]، لكن لم يذهبوا إلى الجحيم لسبب مجهول. تسبب الغاز بالنوم لمعظم الرهائن، في حين خاضت قوات الكوماندوس معارك مع الإرهابيين الذين لم يكونوا في القاعة الرئيسة، أو لم يتأثروا كما حدث لغيرهم بذلك الغاز. واستمر القتال أكثر من ساعة قبل أن يُحشَر باراييف في ركن من الطابق الثاني ليهبط خلف الشرفة، ثم قتل الواحد والأربعون خاطفًا جميعهم، ومعظمهم برصاص في الرأس.

ويبدو أن الإنقاذ كان سيبدو نصرًا مؤزرًا؛ إلا أن الذين خططوا ونفذوا الاقتحام لم يولوا أي اهتمام لما يمكن أن يسببه الغاز من تأثير في الرهائن الضعفاء، ومن ثم تحول الاقتحام الناجح إلى كارثة. بدأ إخراج أولى الضحايا الفاقدين للوعي في الساعة السابعة صباحًا، حيث وضعوا في صفوف على الدرج الأمامي للمسرح، وتوالت الأعداد أكثر فأكثر، توفي بعضهم، ولكن كان أكثرهم فاقدًا للوعي، وقد تركوا وسط أكوام متزايدة من الجثث، وتزاحمت فرق الإنقاذ، الذين كانوا مستعدين لعلاج الجروح الناتجة عن الرصاص أو شظايا القنابل، لا الناس المختنقين بألسنتهم المنتفخة. وعلى الرغم من أن السلطات أعدت الترياق لمواجهة الآثار المترتبة على الغاز، فإنه لم يكن متوافرًا ما يكفي من الجرعات، ولم يكن المسعفون على الساحة، ولا الأطباء في المستشفيات، يعرفون كيفية التعامل معه. في النهاية توفي 130 رهينة في أثناء الحصار، خمسة منهم فقط توفي بطلق ناري؛ اثنان فقط منهم من الرهائن داخل المسرح، والثلاثة الآخرون كانوا المرأة التي اقتحمت المسرح في اليوم الأول، ورجلين آخرين قتلوا بالرصاص حين كانوا يقتربون أو يدخلون المبنى في أثناء

الحصار[44]. وقد وصف الطبيب الذي شارك في الإنقاذ حالة الارتباك والفوضى قائلًا: «لم تكن مؤامرة لعينة، بل مجرد فوضى سوفييتية».

ألقى بوتين بيانًا تلفازيًّا في تلك الليلة، وظهر على نحو متقطع في أثناء الحصار، حيث ظهر فقط في لقطات قصيرة من اجتماعه مع مستشاريه الأمنيين، وأعضاء البرلمان، والقادة المسلمين. كان متزنًا، فولاذي العينين، يغلي بغضب حادٍّ، يشير إلى الإرهابيين بأنهم «الحثالة المسلحة»، وذكر أنه كان يأمل في الإفراج عن الرهائن، ولكنه استعد للأسوأ، وأضاف: «ما أُنجز شيء مستحيل، لقد أُنقذ حياة المئات والمئات من الناس. لقد أثبتنا أن روسيا لا يمكن أن تركع»؛ فقد نظر بوتين إلى الإنقاذ على أنه نصر على الرغم من اعترافه أنه مؤلم.

قال قبل أن تعلن السلطات الكشف عن الحصيلة المروعة: «لم نتمكن من إنقاذ الجميع، أرجو أن تسامحونا».

الحصار المرعب عزز وجهات نظر بوتين أن روسيا تواجه تهديدًا وجوديًّا؛ فالمتمردون في خاصرة البلاد يريدون تمزيق البلاد بدعم دولي، والحل الوحيد هو أن نقضي عليهم، ومن ثم فإنه حين دان أصلان مسخادوف الهجوم، من خلال ممثله أمام جمع من الشيشان في كوبنهاغن، وعرض الدخول في محادثات للسلام دون أي شروط، رفض الكرملين العرض، وبدلًا من ذلك أصدرت النيابة العامة الروسية مذكرة توقيف دولية بحق ممثل مسخادوف، وهو الفنان أحمد زكاييف الذي تحول إلى ناشط وشارك في المؤتمر، فاعتقلته الدنمارك لكنها رفضت تسليمه، وقالت بعد اعتقاله بشهر إن الروس اختلقوا دليل تورطه في الحصار، وهكذا فقد بات بوتين يرى أن الغرب يؤوي اليوم الأعداء اللدودين لروسيا.

بعد أن انتهاء العملية بأسبوع، ادعى شامل باساييف المسؤولية عن الحصار، قائلًا إنه أراد أن يقدم للروس «معاينة مباشرة لكل المفاتن التي شن الكرملين من أجلها الحرب»، وبدلًا من استغلال الخلاف القائم بين باساييف ومسخادوف، يرفض بوتين اليوم حتى النظر

في إمكانية إجراء محادثات سلام. يعتقد بعضهم أنها الفكرة التي قد تكون وراء الحصار كل هذا الوقت. وظهرت جولة جديدة من نظريات المؤامرة لتقول إما أن فريق بوتين هو الذي دبَّر الحصار، أو أنه لم يفعل شيئًا لمنعه، مستغلين ذلك كما استغلوه في تفجيرات المباني السكنية قبل ثلاث سنوات لتقويض المطالبات بالهدنة عن طريق التفاوض، وقد عمَّق تعتيم الـ FSB الشكوك.

رفض المسؤولون مناقشة كيف أن واحدًا وأربعين مقاتلًا مع الأسلحة والمتفجرات تمكنوا من التسلل إلى العاصمة، من غير أن يكتَشَفوا، ورفضوا الإفصاح عن نوع الغاز الذي استخدم لتخدير من هم داخل المسرح. ورفض مجلس الدوما- تحت ضغط من بوتين- منح الإذن بإجراء تحقيق، وترك كثيرًا من الأسرار التي لن تُحَلَّ إلى الأبد. وعندما سعى الناجون من الحصار إلى التعويض من خلال المحاكم، واجهوا مضايقات من السلطات، وهزيمة تلو هزيمة، إلى أن حصلوا على قدر من العدالة بعد أكثر من تسع سنوات في وقت لاحق[45].

الشكوك- وحتى الأسئلة- كانت تغضب بوتين؛ ومن ذلك أنه في الشهر التالي لاجتماع في بروكسل مع الاتحاد الأوروبي، حين سأله مراسل لوموند هل كان استخدام الألغام الأرضية في الشيشان قتلًا للمدنيين الأبرياء فضلًا عن الإرهابيون الذين كان يعتزم قتلهم؟ دافع بوتين بشراسة مساجلًا أن الإسلاميين أرادوا النصر في الشيشان ليكون جزءًا من الجهاد في جميع أنحاء العالم الذي يستهدف روسيا والولايات المتحدة وحلفاءها، وأجاب ساخطًا جدًّا: «إذا كنت مسيحيًّا فأنت في خطر، وإذا قررت أن تصبح مسلمًا فهذا لن يوفر لك الأمان أيضًا، لأنهم يعتقدون أن الإسلام التقليدي أيضًا معادٍ لأهدافهم»، وتابع، بلغته الفظة حتى إن المترجمين لم يكلفوا أنفسهم عناء الترجمة: «إذا كنت عازمًا على أن تصبح راديكاليًّا إسلاميًّا كاملًا، ومستعدًّا للخضوع لعملية الختان، فإنني أدعوك إلى موسكو؛ نحن أمة متعددة أجناسها، ولدينا خبراء في هذا المجال أيضًا، وسأوصي أن تتم العملية بحيث لا شيء ينمو فيك مرة أخرى»[46].